بنت الباشا ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كانت هذه المرأةُ وضَّاحةَ الوجه زهراءَ اللون كالقمر الطالع ، تحسبها لجمالها قد غذّتها الملائكةُ بنور النهار ، ورَوَّتها من ضوء الكواكب

وكانت بَضَّةً مُقَسَّمَةً أبدعَ التقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغيد الحسان ، أُفْرِغَ فيها الجمالُ بقدر ما يُمكن — إلى أجسام الدُّمَى العبقرية التي أُفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل

وكانت باسمةً أبداً كأوّلِ ما يتلألأ الفجر ، حتى كأن دمَها الغَزَليَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرها ابتسامتها ، كما يصنعُ لخدَّيها حُمرتَهما

ما لها جلست الآن تحت الليل مُطْرِقةً كاسفةً ذابلة ، تأخذُها العينُ فاتشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبَعُ نورٍ وغاض ؛ وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المروقَ هو بُقْعَةٌ من الحياة أُقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلة تُذْرِي الدمعَ وتسترسلُ في البكاء وتَلِجُّ فيه ، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقاً تُفضي منه نفسُها الى الحبيبَ الذى لم يَعُد في الدنيا ؛ الى وحيدِها الذى أصبحت تراه ولا تلمسه ، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها ؛ الى طفلها الناعم الظريفِ الذى انتقل الى القبر ولن يرجع ، وتتمثّلهُ أبداً يريد أن يجيء اليها ولا يستطيع ، وتتخيّلُه أبداً يصيح في القبر يناديها « يا أمى ، يا أمى . . »

قلبها الحزينُ يقطِّع فيها ويُمزّقُ في كل لحظة ؛ لأنه في كل لحظة يريد منها أن تضمَّ الطفل الى صدرها ، ليستشعرَهُ القلبُ فيفرحَ ويتهنّأ إذ يمسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياةُ القلبِ الخارجةُ من القلب ؟

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يَهْدأ عمّا يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاولُ أن يُفَجِّرَ صدرَها ، ويريد أن يدقَّ ضلوعَها ، ليخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبه !

مسكينةٌ تترنّحُ وتتلوّى تحت ضرباتٍ مُهْلِكَةٍ من قلبها ، وضرباتٍ أُخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها الذبيحةُ تحت السكّين . ولكنها لحظةٌ امتدّت الى يوم ، ويومٌ امتد الى شهر . يا ويلَها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدّة الذَّبح للمذبوح

ولو كان للموت قِطارٌ يقف على محطّةٍ في الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافرَ من وجود الى وجود ، وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطة منتظرة تتربص ، وقد ذُهِلت عن كل شيء ، وتجردت من كل معانى الحياة ، وجمدت جمودَ الانتقال الى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها ؛ تُطلّ على الليل المظلم وعلى أحزانها . . . !

* * *

هى فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك . ترادفَت النِّعمُ على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلب ، وكأنما فرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعجبِ الزمانَ فأخذ يقترحُ له ويصنع ما يقترح ، ويزيدُه على رغمه نعماً تتوالى !

وكان قد تقدم إلى خِطبة ابنته شابٌّ مهذَّب ، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلم ، ومن أسلافه العنصرَ الكريم والشرفَ الموروث ، ومن أخلاقه وشمائله ما يُكاثِر به الرجالَ ويُفاخر . بَيْدَ أنه لا يملك من عيشه إلا الكَفافَ والقِلّة ، وأملاً بعيداً كالفجر وراء ليلٍ لا بد من مُصابرته الى حين يَنْبَثِقُ النور

وتقدم صاحبنا الى الباشا فجاءه كالنجم عارياً ؛ أى في أزهى نُورانيّته وأضوئها . وكان قد عَلِقَ الفتاةَ وعَلِقَته ، فظنّ عند نفسه أن الحب هو مالُ الحب ، وأن الرجولة هى مالُ الأنوثة ، وأن القلوب تتعامل بالمسرّات لا بالأموال ؛ ونسى أنه يتقدم الى رجلٍ ماليّ جعلته حقارةُ الاجتماع رُتبة ، أو الى رتبةٍ ماليّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً . . وأنّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم : مذهبِ الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعونُ وأمثالُه ، ليتعبّدوا الناسَ

منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة ؛ فاذا قيل « إلـه » كان جواب القلب : « عزّ وجلّ » ، « سُبحانه »

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تلطّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتتعبّد الناسَ بألفاظ عقولهم الساذجة ؛ فان قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير : « سعادتلو أفندم (١) ! »

نسى الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » وأعماه الحبُّ عن فرقٍ بينهما ؛ وكان ساميَ النفس ، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السموّ انتحالاً ، وأن الشعب الذى لايجد أعمالاً كبيرة يتمجّد بها ، هو الذى تخترع له الألفاظُ الكبيرة ليتلهّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فان قيل « باشا » فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلميّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصاناً أو أقلّ أو أكثر !

نسى هذا الشـاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرق المسكين ، لاتتم عظمتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعيةٌ للمعِدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذّ ، وتملك أسباب القـدرة على الألذّ والأطيب والأكثر

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلة « أفندى » تطاولت إلى كلة « باشا » بالسبّ علَناً . . . !

***

واتقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة

و « بك » مَنْبَهَةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقدْرٌ وثناء اجتماعى ، وذِكْر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرُمَات اللازمة للاسم لزومَ السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجل ، فان تحتها على كل حال (بك) . . . !

وأنْعَمَ له الباشا ، ووصل يَده بيد ابنته فألبَسها وألبَسَه ، وأعلمها أبوها أنه قد فَحَصَ عن البك فاذا هو (بك) قوة مائتى فدان . . . ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر ./. !

وخَنَسَ الأفندى وتَراجَعَ مُنْخزِلاً ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوّج لقبَه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه « أمم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌّ مُفْلِس ، أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال

وقدَّمت مِائَتا الفدانِ مهرها «الطّينيّ» العظيم بما تعبيرُهُ فى اللغة الطينيّة : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلها جاموساً ، ومثلها بغالاً وأحمِرة ، وفوقها مائةُ قنطارٍ قطناً ، ومائة أردبٍ قمحاً ، ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والمجموعُ الطينيُّ لذلك ألفُ جنيه ، وعزَى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلتها الأزْمة قبحَها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا » زفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيرُهُ : أنه أُنفق عليه ثمنُ ألف قنطارٍ بصلاً ، ومائةِ غرارةٍ من السَّماد الكيماوى ، كأنما فُرِش بها الطريق . . . !

وطفق الباشا يُفاخر ويتمدّحُ ، ويَتَبَذّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين ؛ فردّت الأقدار كلامَه عليه ، وجعلت تمرْجعَه فى قلبه ، وهيّأتْ لبنت الباشا معيشة « طينية » بمعنىً غيرِ ذلك المعنى . . .

***

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة ، وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل

وَلجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر، تلحق فيه بولدها؛ فوضعت الأقدار من ذلك في روحها معنى الطين والتراب

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عملَ الطين، في تحليله الأجسامَ وإذابتها تحت البِلَى

* * *

وكان وراء قصرها «حِوَاء»(١) يأوي اليه قوم من «طين الناس» بنسائهم وعيالهم، وفيهم رجل «زَبَّال» له ثلاثة أولاد، يراهم أعظمَ مفاخره وأجل آثاره، ولا يزال يرفع صوته متمدّحاً بهم، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مُفاخراً، مرة بأحمد، ومرة بحَسن، ومرة بعَلِيّ. وأعْجَبُ أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متَمَيّزين في الطبيعـــة لأولاد «الباشوات»... وهو يحبهم حبّ الحيوان المفترس لصغاره؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعة قوّته، فلا يزال يَحوطُهم ويتممّهم ويرعاهم، حتى إنه ليقاتل الوجودَ من أجلهم؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّاتِ قلبه، ذلك القلبِ الذي انحصرت مسراته في النسل وحده، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبّ الى نهاية الحب. وكذلك الزّبّال الأسد(٢)

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا في تلك الليلة التي جلست فيها بنت الباشا على ماوصفنا، وفي ضلوعها قلب يُفتّتُ من كبدها، ويُمزّق من أحشائها

وبينا تُناجي نفسها وتَعجَب من سخرية الأقدار بالباشا والبك، وتَستَحمِقُ أباها فيما أقدم عليه من نبذ كُفئها لعجزه عن مهر باشا، وإيثار هذا المهر الطينيّ، وتباهيه به أمام الناس، واندرائه بالطّعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين — بينا

كذلك إذا بالزبال، كانسِ التراب والطين يهتف في جوف الليل ويتغنى:

يالِيل، ياليل، ياليـــل ما تنْجلي ياليـــل

* * *

القلب أهُو راضي لكْ حمدى يا ربي
مِنِ الهمومْ فاضي إفرحْ لى يا قلبي

يا دُوبْ كدا يا دُوبْ زَيّ الحمامْ عايشْ
ما يمْتِلِكْ غيرْ تُوبْ طُولْ عمرُه فيهْ نافِشْ...
ياليل، ياليل، ياليـــل ما تنْجلي يا لِيـــل

* * *

إن قلت أنا فَرْحانْ دا مِينْ يِكذّبْني
وأكْترْ مِنِ السلطانْ فرحانْ أنا بابْني

بينِ السيوف يا ناسْ لَمْ أنكسرْ سيفي
وابْن الغنى محتاسْ وانا على كيفي....
ياليل، ياليل، ياليـــل ماتنْجلي يا ليـــل

* * *

وابْن الغني في همُومْ والخالي خالي البالْ
والفقر ما بيْدُومْ وتدُومْ هموم المالْ

يا طيرْ يا طيرْ، يا طير الحُرّ فُوقِ اللّومْ
والخيرْ، جميعِ الخير لُقْمَهْ، وعافْيَه، ونُومْ
ياليل، ياليل، ياليـــل ما تنْجلي يا لِيـــل

* * *

ولم تختر الأقدارُ إلا زبالا تُرسِلُ في لسانه سخريتَها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا...!

وكَسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ وحَطْمُ نَفْسٍ بحطْمِ نفسِ
ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسى كُناسةً هُيِّئَتْ لِكَنْسِ...!

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

---

(١) الحِواء: جماعة من البيوت كهذه العشش التي يسكنها الصعايدة في بعض الأحياء

(٢) هذا الزبال شخصية حقيقية، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان «أرسطو» رجع زبالا ليتم فلسفته. والكاتب يعرف الرجل ويبره أحياناً، وكان حضرته قد طلب الينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به في (أوقات الصفاء) فوضعنا له الاغنية التي يراها القارىء بعد وهو يصدح بها في لياليه. وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصاً ان شاء الله